



من يحارب من في سوريا؟ ولماذا؟ ظهر رئيس النظام السوري مؤخراً ليصرح بأن سوريا اليوم في (حالة حرب) وأن سياساته ستكون منصبة على الانتصار فيها.

لابد وأن نوافق الرجل على أن سوريا في (حالة حرب) فعلاً. فاستعمال النظام لكافحة أسلحة الجيش من دبابات وطائرات ومدافع وصواريخ، وقتله واعتقاله وتهجيره مئات الآلاف من المواطنين من جهة، وقيام الجيش الحر باحتلال نقاط العبور الحدودية وتغيير مكتب الأمن القومي وقتله لرؤوس النظام الأمنية والعسكرية وتغييره المحطة الإخبارية الفضائية واعتقاله الثمانية وأربعين إيراني متهماً لهم بأنهم من الحرس الثوري وغير ذلك، كل هذا يؤكّد أننا فعلاً في (حالة حرب). ولكن السؤال هنا هو: من يحارب من ؟ ولماذا؟ !!!

النظام يقول أنه يحارب مؤامرة (كونية) تهدف إلى إخراجه من معادلة (المقاومة ضد إسرائيل والممانعة ضد المخططات الاميرالية). جهات دولية تقول أنها حرب تصفيية حسابات بين المعسكرين الشرقي والغربي وحلفائهم إقليميين تجري على الأرض السورية.

من جهتي، لا أرى أن السيناريو الأول يحمل في داخله الحقيقة، فلو أن هذا النظام مقاوماً حقاً، لفعل شيئاً لاستعادة الجولان المحتل على مدى الأربعين عاماً الماضية، شيئاً أكثر من الاستنكار والاستهجان والتنديد والاحتفاظ بحق الرد وحق اختيار زمان ومكان المعركة، والواقع على الأرض تقول أنه حليف إسرائيل وأنها حليفته.

أما السيناريو الثاني ، فربما كان فيه بعض الحقيقة، وهو أن دولاً كروسيا والصين وإيران ترغب باستعادة أو إثبات وجودها

على المسرح العالمي من خلال إثارتها للضجيج ودعمها للنظام الفايل في دمشق.

ولكن ما يهمني هنا هو طرح هذا السؤال على الشعب السوري، فهو وحده المعنى بالإجابة عليه. للإجابة على السؤال من منظور الشعب السوري فلابد من العودة قليلاً إلى ستينيات القرن الماضي حيث بدأت تجربة شعبنا مع عائلة الأسد (الوحش سابقاً). فأول ما ظهر اسم الأسد الأب على ألسنة السوريين كان ما بعد حرب حزيران عام 1967 حين قالوا: وزير الدفاع حافظ الأسد أعلن سقوط مدينة القنيطرة (عاصمة الجولان) وأصدر أمراً بالانسحاب الكيفي منها، كل ذلك والجيش الإسرائيلي كان ما يزال خارجها وعلى مسافة بعيدة منها.

فكان أن أوقع هذا الإعلان الفوضى في صفوف الجيش ودفعه للانسحاب المهين دون قتال ولتسليم الأرض على صحن من ذهب للعدو.

أما المرة الثانية فكانت أثناء أحداث أيلول الأسود في الأردن عام 1970 حين قرر صلاح جديد، حاكم سوريا الفعلي آنذاك، إرسال الجيش السوري لدعم المقاومة الفلسطينية التي كانت تخوض معركة مع الجيش الأردني. قال السوريون حينها أن وزير الدفاع، حافظ الأسد أيضاً، أصدر أوامره بعدم اشتراك سلاح الجو في هذا التدخل، فكان أن تعرض الجيش لضربة موجعة من قبل الطيران الحربي الأردني وانسحب بخفي حنين.

أما المرة الثالثة فكانت بعد شهرين حين حاول النظام محاسبته على ذلك، فقال السوريون حينها أن حافظ الأسد قام بانقلاب عسكري -أمني على رفيقه الأقرب، وبقية الرفاق، سماه بالحركة التصحيحية واستلم بعدها زمام الحكم. لم يكن الشعب السوري سعيداً بنظام الحكم السابق، إذ كان ديمقراطياً ودمومياً بامتياز، ولذلك رحب بالقادم الجديد، حافظ الأسد، وتنوى أن يكون أفضل من سابقه. وكان من الطبيعي أن ينتظر منه استعادة الجولان الذي يعرف القاصي والدانى أنه المسؤول عن ضياعه. فقام الرجل عام 1973 بمسرحية حرب تشرين لتكون بمثابة (تبرئة الذمة) أمام الشعب، وقد ساعدته إسرائيل لأن يلعب دور (البطل)، بترتيب مع هنري كيسينجر وزير الخارجية الأمريكية حينها، بأن أعادت إليه مدينة القنيطرة ضمن منطقة منزوعة السلاح لاتتجاوز 10% من مساحة الجولان المحتل.

وقد كان ذلك ضمن صفة أكبر رتبها الوزير المذكور وتتضمن منحه لبنان بدلاً من الجولان بشرط أن يصفى المقاومة الفلسطينية ويخرجها من لبنان، كما ساعد بإخراجها من الأردن في السابق. كل هذا بات معروفاً وذكره في العديد من مقالاتي السابقة، ولكن ما لم أذكره أن الشعب السوري بقي ينتظر من الرجل استعادة الجولان، وليس لبنان، وإذا كان غير قادر على ذلك، فانتظر منه التتحي وإعطاء المجال لغيره للقيام بالواجب.

وفعلاً، وبعد سنوات قليلة، تبين للسوريين أن الأسد الأب ما كان يوارد هذا ولا ذاك، وأنه لن يبدل (لبنان) الذي يمثل له (مزروع المخدرات المربيحة) بأي شيء آخر، فانتفض عليه لتنحيته بالقوة. ولكن الرجل قام بالرد بما لم يكن يتوقعه أحد لا في الداخل ولا في الخارج، قام بارتكاب مجازر لم تعرفها سوريا ولا العالم منذ الغزو المغولي لبلادنا قبل 750 عاماً.

فقام أولاً بارتكاب مجردة سجن تدمر عام 1980 حيث أجهز على أكثر من 500 سجين رمياً بالرصاص من خلف قضبان زنزانتهم، ثم أحقها بالمجزرة الأ بشع في مدينة حماة عام 1982 حيث تم قتل ما يقرب من الخمسين ألف مواطن من المدنيين العزل خلال أيام دون تفريق بين نساء ورجال وأطفال، معاقبة للمدينة التي خرجت منها الثورة ضد حكمه. صحيح أنه قضى بذلك على الثورة المسلحة لبعض الوقت، إلا أن الشعب السوري اكتشف حينها أن هذا الرجل والثلة الملتفة حوله لا يمكن أن يكونوا سوريين.

فالحقد والكراهية والقسوة التي تجسدت بارتكابهم لهاتين المجازرتين لا يمكن أن تصدر من ابن بلد اتجاه ابن بلدته. آخر مرة تعرض بها السوريون للحرق أحياء والذبح بالسكاكين كانت أثناء الغزو المغولي الأول السابق الذكر بقيادة هولاكو والثاني بعده بحوالي مئة عام بقيادة تيمورلنك، وآخر مرة تعرضوا للقصف بالطيران والمدفعية كانت على يد الاحتلال

ولهذا وبعد مجزرتي تدمر وحماء، بدأ السوريون يبحثون في أصل هذه العائلة ومن يقف معها فقال البعض أنها تعود لأصول إيرانية ، هاجرت مع غيرها من جبال خراسان إلى مناطق الساحل السوري قبل مئات السنين هرباً من الاضهاد في بلادها، مثلها في ذلك غيرها من الأقليات الأخرى في سوريا، وهذا يفسر العلاقات الوثيقة الغير عربية وبالتالي الغير منطقية بين النظام وبين إيران.

وإن كانت هذه النظرية صحيحة أم (مغرضة) فلا يهم كثيراً، إذ أن هذه العائلة ومن يقف معها تتصرف بما يؤيد ذلك. وإذا نظرنا إلى الدول التي تدعم النظام بالعلن (روسيا والصين) وبالسر (إسرائيل) لوجدنا أنها ليست فقط غير عربية، ولكنها أيضاً كانت دائماً عدوة تاريخية للعرب.

ذهب الأسد الأب وأتى الابن، فاستبشر الكثير من الناس خيراً به، وتوقعوا منه، بالإضافة لمزيد من الحرريات، توقعوا منه استرجاع الجولان، حرباً أو سلماً أو فسح المجال لغيره، لكنه وكأبيه، لا فعل هذا ولا ذلك ولا ذاك. وقد رأينا كيف حاولت الطليعة المثقفة من كافة الأطياف السياسية السورية في البلاد تبليغه بالطرق (السلمية والمدنية والحضارية) عبر ربيع دمشق أولأ (عام 2000) وإعلان دمشق ثانياً (2005 عام ) أن هذا الحال لا يمكن أن يستمر، وأنه لابد من فسح المجال للديمقراطية والتداول السلمي للسلطة.

فما كان منه إلا أن أرسل إلى السجن من طالته يده منهم، ودفع الباقى إلى الخروج من البلاد. وبهذا نرى أن الربيع العربي لم يبدأ في تونس العام الماضي، بل في سوريا قبل 12 عاماً، وأن الثورة المسلحة ضد الحكم العرب لم تبدأ من ليبيا العام الماضي أيضاً، بل من سوريا قبل 30 عاماً. ولكن، ومع حلول ربيع الثورات العربية الثاني العام الماضي، وبعد سقوط حاكمي تونس ومصر، واحتلال الثورة المسلحة في ليبيا وإنفجار المظاهرات في اليمن، رأى الشعب السوري أن ينضم إليها ويعطي النظام فرصةأخيرة ليمنحه الحرية ويستعيد الأرض.

ولكن ما كان الأسد الابن إلا (ابن أبيه) فقرر السير على نفس الخطى مبتدئاً باعتقال وتقطيع أظافر أطفال درعا ثم فتح النار على المتظاهرين المسلمين وزوج الآلاف منهم في معتقلات التعذيب والتصفية، دون تفريق بين رجال ونساء وأطفال. فأثبتت أن نظامه، كنظام أبيه، ليس سورياً ولا عربياً، هذا إذا كان ينتمي للجنس الإنساني أصلاً. ورأينا كيف قرر الشعب الرد بالمثل وبدأنا نرى الانشقاقات في جيش النظام وتشكيل الجيش الحر الذي بدأ بالعشرات وبلغاليوم ما يقرب المائة ألف.

وهنا نصل إلى الإجابة على سؤال عنوان المقال: الشعب السوري بكل أطيافه هو الذي يحارب نظامه الحاكم الغير سوري والغير عربي ومعه حلفائه المعادين تاريخياً للعرب، لأنه (أي النظام) فشل في استعادة الجولان أولأ وارتكب المجازر الوحشية في حق الشعب ثانياً.

وفي الخاتمة أقول للأسد الابن، أنت من أوصلت الأمور إلى حالة الحرب وحصلت عليها، فأرنا الآن كيف ستنتصر أنت والحفنة التي معك على أكثر من عشرين مليون سوري ومئتي مليون عربي. وأقول لك لا يغرك أن إسرائيل استطاعت هزيمة العرب حتى الآن، فهي لم تفعل ذلك إلا بفضلك وفضل أبيك وبقية الزعماء العرب الذين من أمثالكما والذين أوصلتهم الربيع العربي إلى خريف العمر وبدأوا بالتساقط كأوراق الشجر